كلمة أصدقاء الفقيد

ألقاها الدكتور سليمان حداد

السيدات والسادة الأكارم

تحية حب واحترام

كانوا ثلة من الرجال أحلامهم أكبر من اتساع رؤوس الرجال، عِنان الحياة عصي عليهم، ظنوا في مطلع أربعينيات القرن الماضي أن اجتياز جرف جغرافي يفصل بين أنطاكية واللاذقية، قمين بتحقيق الحلم بعد مؤامرة سلخ لواء إسكندرون، لكنهم ما اختاروه حتى وجدوا أنفسهم محاطين بمحيطات من الجروف تحاصرهم، وتنانين من التيارات تهددهم وتحاصرهم، ويزداد الحصار وتتواضع الأحلام وتتقلص حتى لتكاد تضمحل، وينكفئون على أنفسهم خيفة أن يبتلعهم غول السلطة.

وتمضي رحلة العمر سريعًا، فتطوي بعضهم صروف الدهر، ويطل البعض الآخر من قريب أو بعيد على حافَة العمر، وكان آخرهم شاعرنا الراحل منذ أيام معدودة. كانوا بعثة تبشيرية ممنوعة تعمل في الظلام، وتختفي تحت جنح النهار، يوم كان النضال أفيونًا، يوم كان تكليفًا وتشريفًا بدون مقابل، بل مقابل التضحية بالحرية أو بالحياة، قالوا في البعث والأمة أناشيد وأهازيج ونسوها، نسوا ما قالوا، ولكن أقوالهم والاقتداء بأفعالهم كانت نبراسًا لكل مناضل.

عصي هو طريق المجد، ومنيعة هي جدرانه، وبالغ العمق محيطه، وعاتية أعاصيره وأمواجه إلا على الندرة التي اصطفاها الله استعدادًا وإرادة ونزوعًا، الندرة التي إذا ما

ساورها الهدف النبيل الصعب، أرست الهدف مقصدًا، وتجاهلت السبل جميعًا، فلا الطرق وعرة، ولا الجدران منيعة ولا الرياح عاصفة ولا الأمواج جارفة، الصعب هو الذلول تحت أقدامهم. حب الغاية يلغي كل متاعب السبل. تنحني لهم هامة الدهر بطواعية خيط الصوف، ليس لأن الرحب خال من العثرات، بل لأنهم شيوخ اجتياز العوائق والعثرات.

مِن هؤلاء الراحلُ الفقيد. مِن رَحِمِ العِصامية ولد وبهاء الصوفية القاسية تَعَمَّد، فكان مناخًا طيبًا لاستقبال كل مآسي الدهر التي داهمته في الطفولة واليفاع.

مغادرة الديار حالة نفي وانتفاء، إلا بالنسبة له، كانت حالةَ نضالٍ دؤوب مستمر منذ تلك اللحظة المبكرة من الحياة، حتى ارتقاء روحه إلى الباري.

تعرفت بالراحل في أربعينيات القرن الماضي. حينما زار قريتي المتواضعة جدًا، التي كانت لا تصلها الرواحل في حينها، لوعورة الطرقات، كانت بيوت القرية كلها من الطين، والفقر يعشعش في كل ركن من أركان بيوتها، كانت خابية الحنطة تربص في إحدى زوايا البيت المظلم كالأسطورة، كانت فارغة برغم دعاء الشيخ وفواتيح العيد، فاختار شاعرنا الراحل شجرة السنديان الكبرى في القرية والمطلة على البحر بالرغم من بعدها عنه، وقرر أن يقيم تحتها مدرسةً يدرس فيها تلاميذ القرية والمنطقة. وكانت مقاعد الدراسة هي الصخور والأتربة الموجودة تحتها، وقد يكون الدرس الأول الذي تعلمته تحت هذه السنديانة، هو الخطوة الأولى نحو الاتجاه الصحيح، الإيمان بوحدة القرية أولاً، ثم وحدة المدينة فوحدة الوطن ثم الوحدة العربية. وكنت ورفاقي ندرك جيدًا أن الطريق طويل وصعب لكننا نؤمن أن الشمس ستبزغ يومًا من قلب البؤس المقهور، من قرية شيخ مات وهو يصلي خلف حمار في القفر أو خلف جدار وليٍّ كان جهولاً لا يقرأ. علمنا سليمان العيسى في حينها كيف نعلم الأجيال التي نكبرها تحت هذه السنديانة التي

سميت سنديانة البعث منذ حينها. سلمنا سليمان العيسى دفة التوجيه وغادر القرية على أن يعود إلينا ثانية، لأنه اتخذ من الواجب مهنة وهو ابن العشرينيات، متجولاً بين جبال الساحل وقراه يلقي بذور إشعاع المد القومي في بدايته، والتربة طيبة والمناخ واعد، على يده تدرب وتدرج كل الرواد، كان قويًا شامخًا في السماء متجذرًا في الأرض كما شجر السنديان. الذين يعطون في كثير من الأحيان يحبون أن يأخذوا إلا هو. درب وهيأ الكوادر التي تدرجت على مرابع القومية، واستمتع الكثير منهم بإغراءات السلطة وامتيازاتها إلا هو. ظل كما هو عصيا على اقتحامات الدنيا، وإغراءات المكاسب اكتفى بأن حفر اسمه على جذع سنديانة التاريخ، وارتقى الأطفال الذين حفظوا عن ظهر قلب قصائد الطفولة إلى سدة أعلى المناصب، وحفظ الكثير منهم بل وحافظوا على القيم التي أرستها تلك القصائد.

في أوائل الخمسينيات سُجن وتعرض للإهانة بسبب نشاطه السياسي لكنه خاطب سجّانه:

أنا شاعر ومدرس يا سيدي وكفى جلالا
في الشوك عشناها وفوق الصخر أعوامًا طوالا
وعلى الحصير حصير آبائي تعلمت النضالا

في عام ٢٠٠٥، أبلغني حَنِينَه إلى السنديانة وتمنى أن يساعده عكازه على زيارتها، وبسرعة حققت له هذه الأمنية، ساعد في ذلك عكازه وأبناء المنطقة الذين هبوا من كل طرف للّقاء بشاعرهم.

حُمل سليمان العيسى على الأكف واستغنى عن عكازه، وأُنزل من على أكتاف الرجال ووضع تحت هذه السنديانة، الشاهد الأزلي كما يسميها الراحل، لأن كل مناضلي

المنطقة اتخذوا منها قدوة وبَرَوا أقلامهم وشحذوا هممهم على جذعها منذ ستة وستين عامًا.

إن الأهازيج التي قيلت معظمها غير مكتوب ولا يعرف مُرَدِّدوها مصدرها، لكنهم رضعوها من حليب الحياة، وقد لا يعرف الذين قالوها أنهم فعلوا، وإن تذكروا استعجبوا من بقائها خالدة. بكى سليمان العيسى وأبكى كل الحاضرين. إنه بكاء الفرح بكاء الذكريات الحلوة بكاء النقاء والصفاء واستذكار للماضي بكل سلبياته (فهو أفضل من حاضرنا اليوم).

في عام ٢٠٠٩ تذكر الراحل السنديانة ورغب في العودة إليها، لكن عكازه هذه المرة لم يساعده! ومع أن أهالي المنطقة أبدوا رغبة في حمله على الأكتاف مهما كانت المسافة، غير أن السيدة الدكتورة ملكة أم معن، زوجةَ الراحل، كانت حريصة جدًا أن لا تزعجه، وكانت حريصة جدًا أن يبقى الراحل بأجمل مظهر واضعةً في اعتبارها السنين التسعين.

فأرسل لي الرسالة التالية:

الوقت لا يَسَعُ، وسأذكر مقتطفات منها:

في حياتنا لحظات يطويها الزمن...ولا يمر بها أحد

ولكنها ربما كانت هي الزمن وهي التاريخ

أمرُّ عليها بعد ستة وستين عامًا

إنها باختصار ومضة سنديانة ضخمة في قرية اسمها حمام القراحلة، في ساحله العربي السوري، سنديانة ومجموعة من الشباب في مقتبل العمر أخذوا على عاتقهم أن يكونوا طليعة ميلاد جديد للأمة العربية كلها، ميلاد اسمه البعث، وأن يبشروا به أينما حَلُّوا. ولكن هل هناك منجز من منجزات الإنسانية لم يكن حلمًا في يوم من الأيام.

أعدني إليها يا أبا الريم إنها

إذا احترقت كل الكؤوس شرابي.

أيتها الصامتة المهيبة على كتف جبل أشم من جبالنا على الساحل العربي السوري،

أجمل ساحل عرفته في حياتي.

يا سنديانة صبانا الأول

تشاء الظروف أن أخاطبك من بعيد

وقد كنت أود أن أتحدث إليك وأنا تحت ظلالك في الضيعة كما فعلت من عامين

ولكنك تبقين أبدًا ماثلة أمام عيني في أي مكان كنت،

بعيدًا تضربين بجذورك في الأرض.

ومازلنا نحاول أن نبحث عن جذورنا، بعيدًا تمدين فروعك في الفضاء

وتعطينا الدرس، أن نتطلع أبدًا إلى الأعلى، إلى الأرحب كما تتطلعين أيتها المهيبة الصامتة،

التي تحمل التاريخ في صدرها، تاريخنا وتاريخ أهلنا المعذبين

لكم بدوت لي حلوة أليفة قريبة قبل عامين،

حين حملني إليك هذا الأخ الكريم ابن السنديانة الوفي

سليمان حداد

لكم بدوت لي حلوة أليفة

حين أُتيح لي أن أعود إليك بعد السنين الطوال

وأن أتفيأ ظلك

وأن تعيدي إلى سمعي

أهازيجي وأشعاري القديمة التي كنت أنشدها بين يديك،

يحيط بي أهلي وأهلك الطيبون،

بعضم رحل وبعضهم ما يزال شاهدًا على كتاب الذكرى وأحلام الماضي

سنرحل جميعًا

وستبقين أنت

حاملة الأسرار وشاهدة التاريخ

كما سميتك ذات يوم

التاريخ الضائع المنسي

وأشهد بكل جارحة من جوارحي أنه كان البداية.

شكرًا للأخ والصديق الذي يشاطرني نصف اسمي

الذي أصر أن يزيح التراب عن هذه الذكرى وينقشها على صخرة من صخور الوفاء.

شكرًا لعكازي الذي أصر أن يحملني إليك في المرة الماضية،

ولكنه لم يستطع أن يحملني إليك اليوم.

أيها الإخوة

راحلنا أكثر من شاعر،وأكثر من مُرَبّ، وأكثر من مناضل، وأكثر من رائد، هو هؤلاء جميعًا وأكثر. دليلنا إلى ذلك هذا الجمع الكريم المشكور.

رحم الله فقيدنا وعوَّضكم السلامة وثواب العزاء.